كتاب الشباب

دار الأشباح



أحمد عبدالسلام البقالي

قصص



دارُ الأَشْبـــاح

بقلـم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

دار الأشباح .-الرياض.

---ص، ١٤ X ٢١ سم (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك: ٣-٢٢٨-٢٠-٩٩٦٠

١- القصص البوليسية العربية أ- العنوان ب- السلسلة

ديوي ٨١٣٫٠٨٧٢ ١٧/٠١٣٦

ردمك: ٣-٢٢٨-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٧/٠١٣٦

الطبعة الأولى ١٩٩٦م

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

الناشـر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

عادَ عبـدُ القادرِ الفَـرْدِيُّ إلى بيتِهِ للغَـداءِ، فحاصرَهُ أطفـالُهُ الخمسةُ، وأحاطُوا بهِ، وأخذُوا يصيحونَ:

- عُطْلَة! عُطْلَة! رِحْلَة! رِحْلَة!

ووقفَتْ أمُّهُم، الحاجةُ مليكةُ، تنظـرُ إليهِم وإليهِ ضاحكةً. فسألَهَا:

- ماذَا يريدونَ؟

- يريدونَ الذهَابَ إلى مصطافٍ شاطئيٍّ. فقد نجحُوا جميعًا في الامتحانـاتِ، وانتهتِ السنةُ الدراسيةُ، ولمْ يعـودُوا يحتملونَ البقاءَ في هذهِ المدينةِ الخانقةِ الحرِّ! وأنَا معهُم فيمَا يَطلبونَ!

ففضَّ الفردِيُّ الأطفالَ عنهُ، وقالَ:

- لنتغدَّ أولاً، ثم نفكِّرُ في الموضوعِ!

كـانَ عبـدُ القـادِرِ الفـردِيُّ معـروفًـا بينَ زملائِـه السماسرةِ بعبدِ القـادرِ الغلاءِ؛ لكثـرةِ ما يردِّدُ الكلمـةَ، ولبُخْلِه الشـديدِ

وحِرصِهِ على كسبِ الصفقاتِ العقاريةِ، ولو بِطُرقٍ غيرِ شريفةٍ عندَ أهلِ المهنةِ!

وكانَ يُقَتِّرُ على نفسِهِ وعيالِه. لمْ يأخذْهُم ولو مرةً واحدةً، للتنزُّهِ في الغابةِ أو الجبلِ أو في بلدٍ شاطئيٍّ لرؤيةِ البحرِ والسباحةِ!

وحينَ كبرُوا، بدأُوا يسمعونَ من رفاقِهِم في المدارسِ عنْ رِحلاتِهِم ومغامراتِهِم على شواطِئ البحرِ وفي الغاباتِ والجبالِ، أخذُوا يَغارُونَ مِنهُم، واتفقُوا علَى مطالبةِ والِدِهِم برحلةٍ، حتَّى لا يَبقَوا عُرضةً للسخريةِ والتشفِّي!

ولم ينفَعْه معهُم التماوُتُ وادِّعاءُ الفقرِ وكسادِ سوقِ العقارِ، فوعَدَهُم بأنْ يفكِّرَ في الموضوعِ. واعتبرَ الصغارُ وعدَهُ بالتفكيرِ وعداً بالتنفيذِ، فتصايَحُوا، وتراقصُوا فرِحينَ. و«تشقلَبَ» صِغارُهُم على الحَصيرِ كالبهلواناتِ، وكأنَّهُم فِعلاً على شاطِئ البحرِ.

وشغَلَهُ الأمرُ، فباتَ الليلَةَ يقلِّبُهُ علَى جميع وجوهِهِ. وفي الصباح اهتَدَى إلى حلٍّ عدَّهُ عبقريًّا...

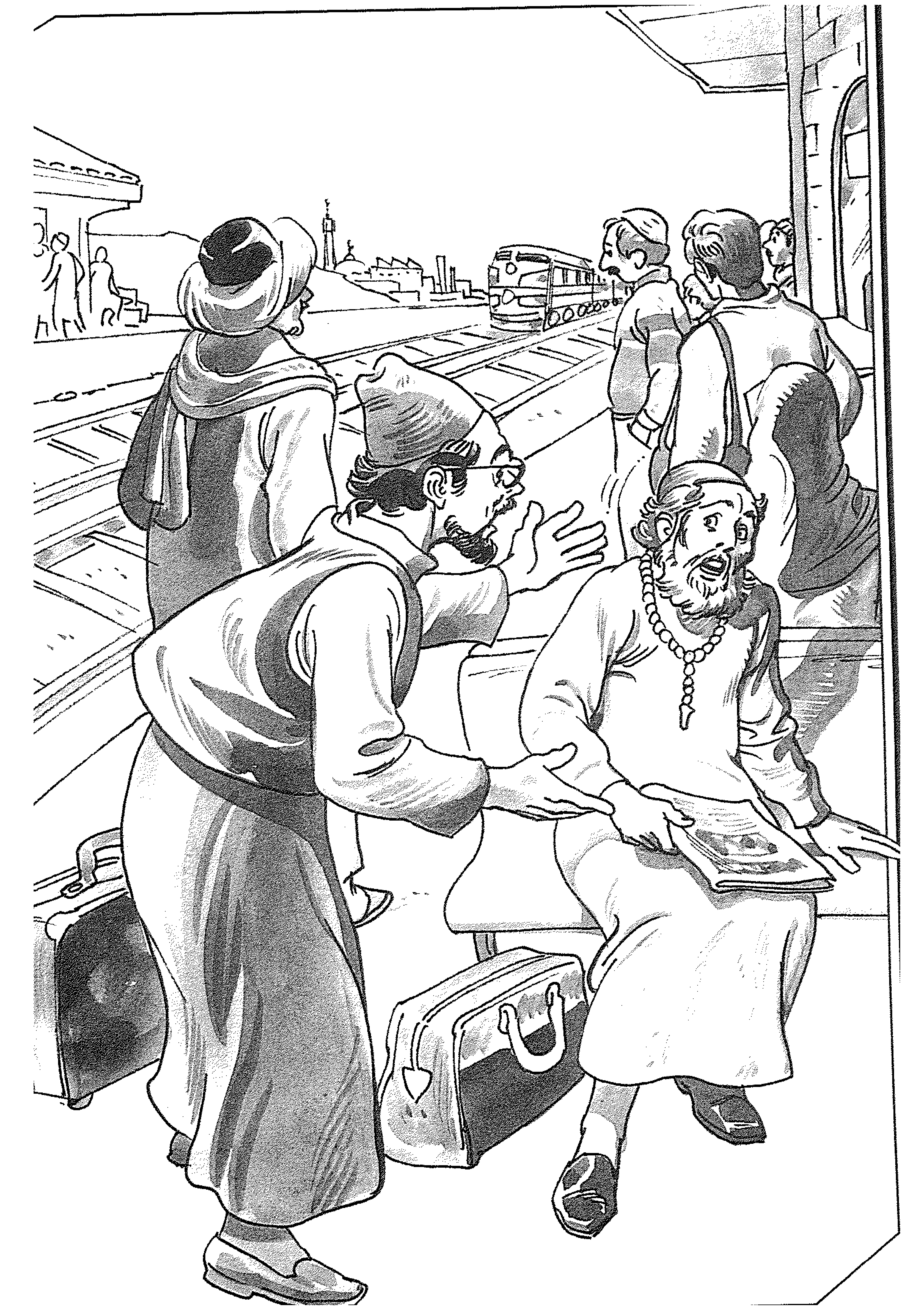
بعد الإفطـارِ، لبِسَ أحسنَ ثيابِه، وذهبَ إلى محطـةِ القطارِ، تاركاً وكالتَه العقاريّةَ لمساعدِهِ الشابِّ. ووقفَ على بابِ المحطةِ يمسحُ وجوهَ المسافرينَ بعينينِ ماكرتينِ، يزيدُهُما زجاجُ النظارةِ السميكُ ضيقًـا وحدَّةً، إلى أنْ وقعَ بصرُه على وجـهِ رجلٍ مُلتحٍ معمَّمٍ، يرتـدي جلبابًا صـوفيًّا أبيضَ، وفي عُنُقِه سبحـةٌ غليظةُ الحبـاتِ، وعلى وجهِـهِ آثارُ النعمـةِ، وغيرُ قليلٍ منَ السـذاجـةِ والغفلةِ !

فتسلَّلَ خلفَهُ حتَّى وصلَ الرجلُ إلى شبـاكِ التذاكرِ. وأنصتَ الفـرديّ إلى بـائعِ التـذاكـرِ، فسمعـه ينـادِيـهِ بـالحاجِّ الطيِّبِ، ويسألُهُ عنْ أحوالِ أهلِهِ وبلدهِ «طَنْجَة»، وذلكَ مَا كانَ يريدُ !

وحينَ اشترَى الحاجُّ الطيِّبُ تـذكـرتَـه، وخـرَجَ من الصفِّ، اعترضَ الفـرديُّ طـريقَـهُ، وواجهَـهُ، وأخـذَ يحملِقُ في وجهِـهِ ويدقِّق النظرَ فيهِ. . . ثمَّ رفَعَ ذراعَيْه بطريقةٍ مسرحيةٍ وصاحَ :

- اللهُ أكبرُ ! اللهُ أكبرُ ! لقدْ صدقَ وعْدَه ! لا إلَهَ إلا اللهُ !

كلُّ هـذَا والحاجُّ الطيِّبُ ينظرُ إليـهِ في دهشةِ مَنْ يظنُّ بعقلِـهِ الظُّنُونَ !



فتقدَّمَ منهُ عبدُ القادرِ الفرديُّ، وأمسكَ برأسِهِ وقبَّلَهُ، وقالَ لهُ:

- سيدِي الحاجُّ، لا تؤاخذْنِي ! فقدْ جئتُك قاصدًا، وما كنتُ أظنُّ أننِي سألقاكَ؛ فقد رأيتُك في منامِي في رؤيا، بعد صلاةِ الفجر... رأيتُك هكذَا، كما أراكَ الآنَ، في هذه المحطةِ، وفي هذا الوقتِ خاصة ! فتركتُ شُغْلِي، وجئتُ أجرِي لأتأكَّدَ مِن صِحَّةِ الرؤيَا... وها أنتَ أمامِي بكلِّ روائك وبهائِك ! سُبْحانَ اللهِ !

ثم أمسكَ بيدِه، وقبَّلها، والرجُلُ يسحبُهَا مِنْهُ، ويستغفرُ اللهَ، وقالَ:

- أرجوكُمْ، يا سيدِي الحاجُّ الطيبُ، أن تستجيبُوا لدعوتِي، وتلبُّوا رغبةَ أهلِ بيتِي، وتشاركُونَا طعامَنَا، ولتدعُوَ لِي ولأهلِي برضَا اللهِ في الدنيَا والآخرةِ...

ولم يملكِ الحاجُّ الطيبُ إلا أنْ ينزلَ عندَ رغبةِ هَذا الرجُلِ البركةِ الذِي رآهُ في منامِهِ، وخاطَبَه باسمِه، وهو لا يعرفُه...

فردَّ التـذكرَةَ إلى بائعِ التـذاكرِ، وصحِبَ عبدَ القـادرِ الفرديّ في سيارتِه العتيقةِ إلى بيتِهِ، حيـثُ قدَّمَه إلى أولادِهِ الخمسةِ على أنّه عَمُّهُم من طنجةَ . . . وحين سمعُوا طنجةَ فرحُوا فرحًا شديدًا، وأخذُوا يتراقصونَ، ويغنُّون أغنيّةَ :

يـا طنجـة يـا العاليـة عـاليـة بسـوارِيهـــا

واستبشـرُوا بقضاءِ عُطلةٍ صيفيةٍ طويلةٍ على شواطِئِهَا الجميلةِ !

وأسكتَهُم والدُهم حتَّى لا يكشِفُوا اللعبةَ للحاجِّ الطيِّبِ !

وكَـانَ عبـدُ القـادرِ الفـرديُّ لا يطلِقُ على أولادِهِ إلا الأسماءَ التِي تجلِبُ الحظَّ أوْ تتفـاءَلُ بِـهِ، مثلَ عبدِ الغنـي وعبدِ الـرزاقِ وفوزيَّةَ ورابحةَ وخيريةَ .

وأدخَلَ الفـرديّ ضيفَـهُ إلى أحسنِ غـرفِ البيتِ، وأحضرَ الشـايَ والحلوَى . وبعـدَ صلاةِ الظهـرِ، عـادَ بهِ للغـداءِ . وفي المساءِ أخذهُ إلى «مسجِدِ بدرٍ» لصلاةِ المغربِ والعشاءِ . وتعشى عنـدَهُ، وباتَ تلكَ الليلـةَ، الأمـر الذِي استغـرب لَهُ الأطفـالُ جدًّا، وظنُّـوا أنَّ والدَهُم أُصيبَ بنوبـةِ سخاءٍ حـادةٍ مفاجئـةٍ،

أو خرجَ عن عقلِهِ !

وأصرَّ الفـردِيُّ علَى بقَـائِهِ معَهُم ثـلاثَـةَ أيـامٍ، ولكنَّ الحاجَّ الطيِّبَ اعتذرَ بشغـلٍ عاجلٍ ينتظرُهُ في طنجَـةَ، ويتعلَّقُ ببعضِ حقوقِ الناسِ التي يخشَى اللهَ مِن التفريطِ فيهَا .

وعادَ الحاجُّ الطيبُ إلى طنجةَ، وما كَـادَ يصلُ إلى بابِ منزلِهِ حتَّى فـوجئَ بمنظـرِ عبدِ القـادرِ الفـرديِّ وجميعِ أفرادِ أسرتِـهِ، وهم يُنزلونَ حَقائبَهُم مِن فوقِ السيارةِ العتيقةِ . . !

ورغمَ أنَّه ارتبكَ قليـلاً، فإنه أظهـرَ لهُ مِن الترحيبِ والسرورِ بمقدِمِهِ مَـا يليقُ بكبارِ الضيوفِ . . . وقـدَّمَ الضيوفَ إلى أفرادِ عائلتِـهِ . وأنزلتْهُم السيـدةُ رُقَيّةُ في أحسـنِ غُرَفِ المنزِلِ القـديمِ الفسيحِ وأكبرِهَا .

وعلَى مـائدةِ العشاءِ الفـاخـرِ أعادَ عبـدُ القـادرِ قصةَ رؤيـاه الـربّـانِيَّـةَ، وأضـافَ إليهَـا أنَّـهُ رأى الـدارَ كـذلكَ ووجـوهَ سكانِها . . . ورفع كفَّيْهِ إلى السماءِ، وأخـذَ يدعُو ويبتهلُ إلى اللهِ أنْ يحشرَهُ هوَ وعائلتَهُ معهُمْ في جنةِ النعيمِ المقيمِ .

* * *



كان محمَّـدُ المكّي في التاسعةَ عشرةَ ذكيًّا واعيًـا، يتمتَّعُ بروحٍ مَرحةٍ، وحاسّـةٍ فكاهيّةٍ مرهفةٍ. وكان حديثَ العَهْـدِ بالرجوعِ من تطـوانَ حيثُ كـانَ يـدرُسُ فِي الثانـويّ. وكـان يتشـوَّفُ إلى قضاءِ عطلةٍ صيفيةٍ ممتعةٍ معَ أصدقـائِهِ ومعارِفِهِ الذينَ يدعُوهُمْ إلى بيتِهِ للسمـرِ، وتبادُلِ الأفكارِ والآراءِ والـذكرياتِ القـديمةِ، ويحكُـونَ مَا حـدثَ لكلٍّ منهُمْ بعـدَ افتراقِهِمْ فِي أواخـرِ الصيفِ الماضِي، خصوصًا صديقَ صِباهُ وابنَ خـالتِهِ عبد السلامِ زيانَ، الذي لم يكنْ يفارقُهُ، والذي دخلَ ميدَانَ التمثيلِ.

وعزّى المكيُّ نفسَـه بأنَّ الضيوفَ لا بُدَّ ذاهبونَ، بعـدَ يومٍ أو يومينِ، إذا لمْ يذهبُوا قبلَ ذلكَ.

وفِي أولِ لقـاءٍ لمحمـدٍ المكّي بعبدِ القـادرِ الفـرديِّ، لَمْ تـرتَحْ نفسُه إليهِ بالمرَّةِ، وقالَ لأمِّهِ: «هَذَا الرجلُ نصابٌ!».

وسمِعَهُ أبُـوهُ، فاستعاذَ بـاللهِ، ووبَّخَهُ، وقالَ لـهُ: «إنَّ هذا الرجلَ رجلٌ صـالحٌ»، وحكَى له كيفَ أنَّ الـرجلَ رآهُ في رؤياهُ، ومحمـدٌ المكيّ ينصتُ صـامتًـا خافـضَ الجناحِ لـوالِـدِهِ حتَّى لا يغضِبَه.

وأنهى الحاجُّ المكّي محاضَرَتَه لابنِهِ بقولتِهِ المشهورةِ: «من خدعَنَا باللهِ انخَدَعْنَا لهُ!».

وكانَ كثيراً ما ينخدعُ بالمهرجينَ والطفيليينَ والمحتالينَ.

ومرتْ ثلاثةُ أيامٍ دونَ أن يبدُوَ عَلى الضيوفِ السبعةِ أنَّهم سيلتزمونَ بمدةِ ضيافةِ النبي التي هِيَ ثلاثةُ أيامٍ، حسبَ التقاليدِ المتَّبعةِ.

واكتشفتْ عائلةُ الحاجِّ الطيبِ الصغيرةُ المهذبةُ المنضبطةُ أنَّ أسرةَ عبدِ القادرِ الفرديِّ أسرةٌ عديمةُ التربيةِ، جاهلةٌ بأبسطِ قواعدِ السلوكِ الاجتماعيِّ المقبولِ، وكانَ الأطفالُ قليلي الأدبِ على المائدةِ، شَرِهينَ على الطعامِ، يمدُّونَ أيديَهُم، أثناءَ الأكلِ، إلى ما هوَ أمامَ غيرِهم، ويتكلمونَ وأفواهُهم عامِرَةٌ، وبأصواتٍ عاليةٍ، ويتشاتمُونَ ويتعاركونَ، فيسلُّ أبُوهُم حزامَهُ الجلديَّ العريضَ، ويقومُ من مجلِسِه ليهوِي بهِ عليهِم، والحاجُّ الطيبُ يحملِقُ غيرَ مصدِّقٍ، ويترجّاهُ الكفَّ عن الضربِ...

وبعدَ سبعَةِ أيامٍ، كانتْ أسرةُ عبدِ القادِرِ الفرديّ قد

استقرَّت في الـدارِ، وأخـذتْ تسيرُ على عـاداتٍ ثـابتـةٍ لا تُنبئُ بالتفكيرِ مطلقاً في الرحيلِ !

وصـارتْ زوجةُ الفـرديّ تتمنّى في البـدايةِ على زوجـةِ الحاجِّ الطيِّب بعضَ أنواعِ المأكولاتِ الخاصـةِ بالمنطقةِ، وتمدحُها لَهَا، ولكنّهـا في النهـايةِ أخـذتْ تشترطُ مـا يجبُ أنْ تُحضِرَهُ المُضيفـةُ للإفطارِ والغَداءِ والعشاءِ وشاي المساءِ.

وكانَ عبدُ القادرِ الفرديّ يذهبُ معَ الحاجِّ الطيبِ إلى دكانِهِ في الصبـاحِ، ويعودُ مَعَـهُ في وقتِ الغـداءِ. وفي المساءِ، كـانَ يخرُجُ وحدَهُ للتجوُّلِ في المدينَةِ، لعلَّهُ يجدُ فرصَةً لعقدِ صفقةٍ عقاريّةٍ.

أمــا زوجــةُ الفــرديِّ، فكـانـتْ تترُكُ مـائدَةَ الإفطــارِ هي وأولادُهـا، دونَ أن تكلِّفَ نفسَهَا حتى عنـاءَ حملِ كأسٍ أو طبقٍ للمساعـدةِ في غسلِهِ، أو الدخولِ معَ الحاجـةِ رقيَّةَ إلى المطبخِ، أو حَتَّى تـرتيبِ الغرفـةِ التي تنـامُ فيهَا هيَ وأسرتُها، بلْ كـانت تتركُها كحظيرةِ بهائمَ !

وبدلاً منْ أنْ تسـاعدَ في شيءٍ مَا، كـانت تقعُد إلى الهاتِفِ،

وتنـادِي كلَّ مَن تعـرفُهم، داخلَ البلـدِ وخـارجَـه، للحـديثِ معهُم الساعـاتِ الطوالَ في تـوافهِ الأمـورِ، وتفتخِرُ عليهم بأنَّها تقضِي وأسرتهَا عطلةَ الصيـفِ في زينِ المدائنِ، طنجَةَ العـاليةَ ! وتضحكُ حتّى تظهَرَ أسنانُهَا المسوَّسَةُ !

وكان محمَّـد المكيُّ حينَ يراهَـا وسماعة الهاتفِ لاصقـةٌ بأذُنِها طوالَ سـاعاتِ الصبـاحِ، وكأنّها ولدتْ بِهَا، يغلِي دمُـه غضبًا، ويقولُ لأمـهِ، مهدِّدًا، بأنَّه سينـزِع السماعةَ من يـدِهَا، ويهوِي بهَا علَى رأسِها، أو يخنقُها بحبلِ الهاتفِ ! كـانَ يعرفُ أن فاتورةَ الهاتفِ وحدَهَا ستخرِبُ ميزانيَّةَ الأسرةِ مدَّةَ عامٍ كاملٍ أو أكثَرَ ! ولكنَّ أمَّهُ كانتْ تهدِّئهُ وتصرِفُهُ عنْ ذلِكَ قائلةً :

«في سبيلِ اللهِ ! كلُّهُ مخلوفٌ عندَ اللهِ !»

وتضيفُ :

«إنَّ الرجُلَ ذُو مالٍ، كمَا قالَ لي والـدُكَ، ولا بدَّ أنَّهُ سيساهِمُ في نفقاتِ البيتِ بشيءٍ !».

ولكن لمْ يعـدْ عبدُ القـادرِ الفـرديّ إلى البيتِ طوال المدة ولـوْ ببَصَلـةٍ ! بلْ كانَ يستلِفُ منَ الحاجِّ الطيبِ لشراءِ بعضِ مَـا لاَ تسخُو نفسُه بشرائِهِ !

أمَّـا الأطفالُ فكـانُوا يتركـونَ البيتَ في حالـةِ فوضَى وقـذارةٍ تشمئِزُّ منْهَـا النفوسُ ! ويأخـذونَ كلَّ يـومٍ مجموعةً مـن الفُوَطِ النظيفـةِ معهُمْ إلى البحـرِ، ولاَ يعــودُونَ إلا ساعـةَ الغـداءِ بها وسِخَـةً مشبعـةً بـالـرمـالِ، وهم جـائعــونَ كـالـذئابِ . . . ويتخاصمـونَ على الحَمَّامِ، ويتركونَ أرضَـهُ مكسوَّةً بـرملِ البحرِ والملابسِ الوسخةِ !

واشتـدَّ الضغطُ على الخادمةِ التي عـاشتْ في الدارِ أكثـر من عشرِ سنينَ، فهـربَتْ إلى حيثُ لا يـدرِي أحـدٌ ! ونَـزَلَ الحِملُ على الأم المسنَّـةِ والبنتيْنِ المدلَّلَتَينِ، وأخـذَ الحاجُّ يأتِي كلَّ يـومٍ بخادمةٍ لغسلِ الملابسِ، وأخرى للمساعدةِ في المطبخِ والنظافةِ العامةِ .

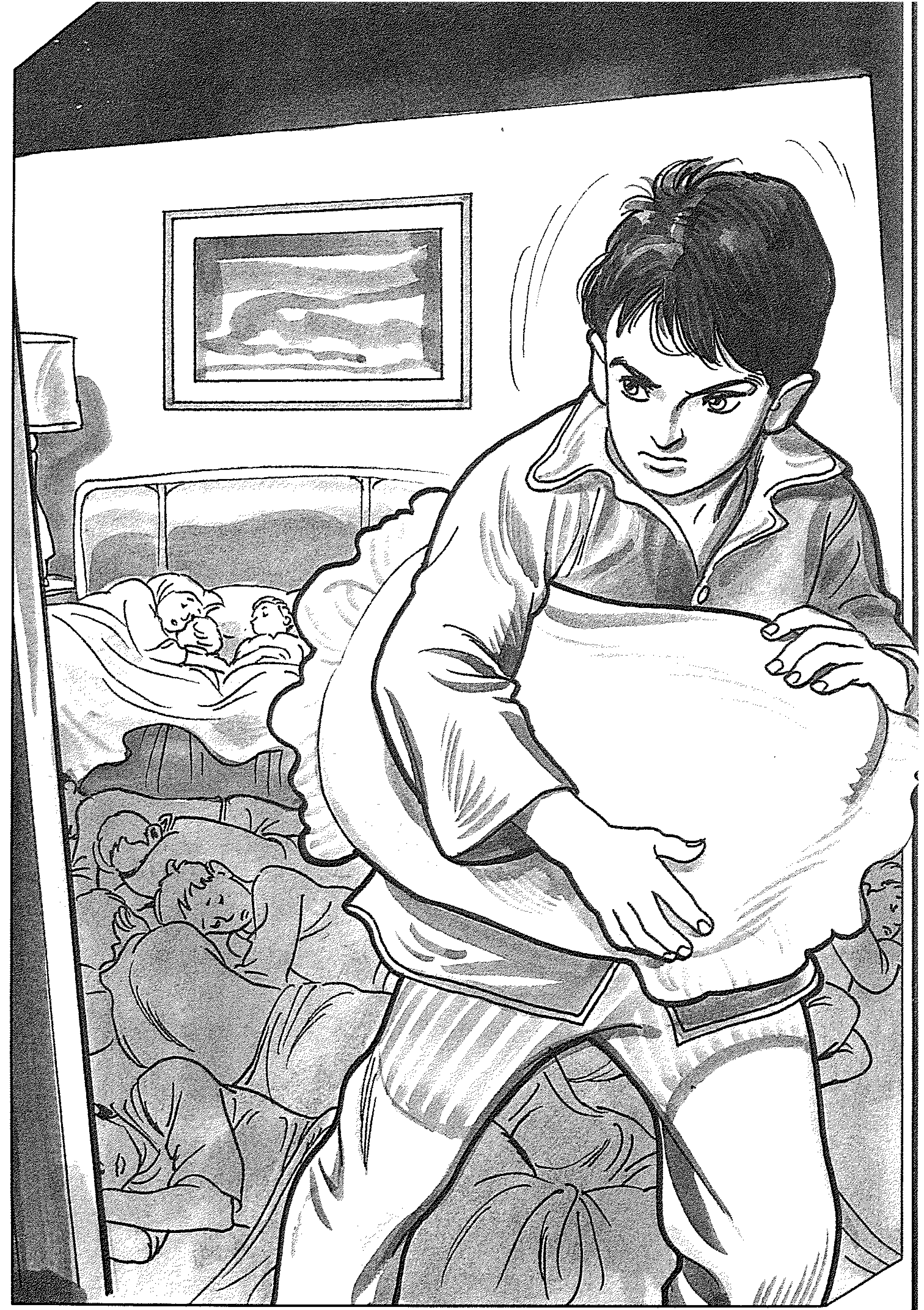
* * *

ولم تكتفِ زوجـةُ عبـدِ القـادرِ الفـرديِّ بإثقـالِهَا وأسرتِهَا على الناسِ، بلْ جاءتْ معهَـا بعائلةٍ أخرَى من أقـاربِهَا، مكونةٍ من سبعةِ أفـرادٍ، كانت تبحثُ عَـنْ مكانٍ للسكنَى في أحـدِ أحياء المدينَةِ فاستضافتها . . . وأصبَحَ البيتُ جحيمًا لا يطاقُ!

ولم يعـدْ محمـدٌ المكيّ يجدُ مكـانـاً لـهُ علَى المائدةِ الثـانيـةِ ولا الثالثةِ، فصـارَ يأكلُ وجباتِهِ خارجَ البيتِ، أو في بيـتِ صديقهِ عبد السلامِ زيانَ.

وفي الليل لَمْ يَعُـدْ يَجِدُ غِطـاءً ولا وِسادةً، فكـان ينتظـرُ حتى ينامَ أحَدُ الضيوف، فيأخُذ الـوسادةَ مِن تحتِ رأسِهِ والغطاءَ من فـوقِهِ، ويـركض بِهِما إلَى غـرفتِـهِ، ويقفلهَا عليـهِ! فصـار كلُّ واحدٍ يربُطُ غِطاءَهُ ووسَادَتَه بحبلٍ إلى رجلِهِ أوْ يدِهِ!

وفي الليلـةِ الأولَى لهذِهِ العمليّـةِ، قـامـتْ معـركـةٌ بينَ المكّي وأحدِ الأولادِ في الظلامِ، حينَ ضبطَـهُ الولدُ متلبساً بـاختلاسِ لحافِهِ! ولكـنَّ المكّي عادَ في اليـومِ التالي مسلحًـا بسكينٍ حادةٍ قطعَ بهَا الحبلَ، وأخذَ الغطاءَ. وحينَ أيقظَ البردُ صـاحبَهُ، كانَ



الـوقتُ قـدْ فـاتَ لإرجـاعِـهِ، فتسلَّلَ بين النـائمينَ يبحثُ عنْ ضحيةٍ، وداسَ في طريقِهِ بطنَ طفلٍ، فصاحَ هَذا، واستيقظتْ أمُّهُ، واشتبكتْ في معركةٍ مع المتسلِّلِ !

ورغمَ تقارُبِ سنِّه وسنِّ أكبرِ أبناءِ الفرديّ، فلمْ تتكوَّنْ بينهُما عـلاقةُ مـودةٍ، بلْ كانَ ينظـرُ إلى جميعِ أفرادِ الأسرةِ الطفيليـةِ، خصوصًا والدَهُم، على أنَّهُم تَتَرٌ وغجرٌ وطفيلياتٌ بشريةٌ تعيشُ على امتصاصِ دماءِ المغفلينَ !

* * *

وفي اليـومِ الثـاني عشرَ أحسَّ عبـدُ القـادِرِ الفـرديُّ بتبرُّمِ مضيفِيـهِ بِـهِ وبأسرَتِـهِ، فـادّعى المرضَ، وبـاتَ الليلـةَ يئنُّ ويتأوَّهُ. . . وقالَ للحاجِّ الطيبِ :

«حينَ قررتُ العودَةَ، أحسستُ بهذِهِ الـوعكةِ، وكأنَّهَا عقابٌ لِي على الرغبةِ في مفارقتِكُم ! ويبدُو أنَّ الإرادةَ الربانيةَ لَمْ تأذنْ لِي بالرحيلِ عنكُم بعدُ !».

فاضطُرَّ الحاجُّ الطيبُ إلى مجاملتِهِ بقولِهِ :

«هذِهِ دارُكُم، ونحنُ إخوانُكم في اللهِ!».

فأخذَ عبدُ القادرِ يدعُو لهُ بالبقاءِ، وطولِ العمرِ، وفيضِ الرزقِ.

* * *

وكانَ الحاجُّ الطيِّبُ قدْ أنفقَ آخرَ دِرْهمٍ في حسابِهِ، وأخَذَ يفكرُ في بيعِ دارٍ منْ أملاكِهِ القليلةِ، لينفقَ مِنْهَا علَى ضيوفِهِ. وسمِعَهُ ابنُه محمدٌ المكيّ، وهو يكلِّمُ وكيلاً عقاريًّا، فأخذَ السماعةَ من يدِهِ، وأعادَهَا إلى مكانِها، ونادَى أمَّه، فأقفلَ الحاجُّ بابَ الغُرفةِ حتَّى لا يسمَعَ الضيوفُ مَا يسوؤُهُم، وجرَتْ بينَ الثلاثةِ مناقشةٌ حادةٌ حولَ ما ينبغِي عملُهُ. فقالَ الحاجُّ الطيبُ مستسلماً:

«أنَا بذلتُ جُهْدِي. ولا يمكنُ أنْ أطرُدَ الضيوفَ من بيتِي. وعَلَيْكُم أنتُم أنْ تبحَثُوا عنِ الحلِّ، وإلا بعتُ الدارَ لأولِ مساومٍ!».

* * *

وخرجَ محمدٌ المكيّ مهمومًا إلى صديقِهِ عبدِ السلامِ زيانَ، وشكا لَهُ المصيبةَ التِي نزلتْ بِهِم، والمحنةَ التي تجتازُها أسرتُه.

وكانَ زيانُ شابًّا عمليًّا خصبَ الخيالِ، لكثرةِ ما شاهدَ من الأفلامِ السينمائيةِ، فرثَى لحالِ صديقِهِ، ورفَعَ رأسَهُ وحاجبَيْهِ بطريقةٍ مسرحيةٍ، وقالَ لَهُ:

«لا تقلَقْ يا أخِي، فقد جاءكَ المنقذُ!».

وافترقَا على أَنْ يلتقيَا بدارِ محمدٍ المكِّي، بعدَ صلاةِ المغربِ. وكانَ اليومُ يومَ خميسٍ. وهوَ اليومُ الذِي يسهرُ فيه الحاجُّ الطيبُ مع أصدقائِهِ في حلقةِ القرآنِ والذكرِ، وتذهبُ أمُّهُ لزيارةِ أختِها الكبرَى وتبيتُ عندَهَا.

* * *

وحضرَ زيانُ والدارُ شبهُ خاليةٍ. فقدْ كانَ عبدُ القادرِ الفرديُّ وأسرتُهُ يخرجونَ للتسكُّعِ في شوارعِ المدينةِ الكبيرةِ، المنورةِ والمزدحمةِ بالسياحِ. وأحضرَ معَهُ حقيبةً كبيرةً فتحَهَا في غرفةِ المكّي، وأخرجَ منهَا عدداً من الأدواتِ الغريبةِ والأقمشةِ والعُلَبِ، ثمَّ جلَسَ يشرحُ للمكّي خُطَّتَهُ الرهيبَةَ...

وسُرَّ المكيّ بالخطةِ سروراً عظيماً، فكانَ يقـاطِعُ شرحَ صديقِهِ بالضَّحِكِ العالِي والضربِ على ظهرِهِ وكفِّهِ في تواطؤٍ وإعجابٍ!

* * *

ومـا انتهتْ صلاةُ العشـاءِ حتَّى امتـلأتِ الـدارُ بالضيـوفِ وضيوفِ الضيوفِ! وكـانتِ الفتاتانِ المرهقتـانِ حفصةُ وسعادُ قـد أعدَّتَـا، قبل خـروجهما مع أمهما، مائدتينِ كبيرتينِ لتتسعَـا للعددِ الكبيرِ منَ الناسِ الذينَ لا تعرفانِ حتَّى أسماءَهُم...

وتعشَّى محمـدٌ المكيّ وعبـدُ السـلامِ زيـانَ هـذهِ المرةَ معَ الضيوفِ، على غيرِ عـادتِهِمَا. وبعدَ العشاءِ جلسَا حـولَ صينيةِ الشاي يتحدثانِ.

وبمهارةٍ عجيبةٍ تطرقَـا بالحديثِ إلى الدَارِ التي هُمْ فيهَا، وإلى تـاريخِها العجيبِ، وكيفَ أنَّهَا كـانتْ مسكونـةً بأرواحِ أسرةٍ منْ سبعةِ أفـرادٍ وُجِدُوا مشنـوقينَ في سقفِها، دونَ أنْ يُعـرَفَ الفاعلُ حتى الآنَ! وكيفَ أنَّهم يظهـرونَ مـرةً كلَّ سنـةٍ، في مثل يومِ شنقهم خصوصـا، فيجوبونَ الغُرَفَ بأجسـامٍ شفافةٍ، أو هياكلَ عظميّةٍ منورةٍ تتدلَّى من السقفِ العالي، أو مجرَّدِ رؤوسٍ مقطوعةٍ

يتقاطَرُ منهَا الدمُ بكلِّ مكانٍ، وهي تبكي وتولوِلُ وتصرخُ وتعْوِل، خصوصاً إذا حلَّتْ بالدارِ روحٌ شريرةٌ أو قلبٌ شحيحٌ طماعٌ... وتتحوَّلُ الدارُ كلُّهَا إلى مأتم، وتنقلبُ أرواحُ الأمواتِ إلى أرواحِ ذئابٍ وثعالبَ تعوِي، وتملأ الفضاءَ رُعبًا وهلعًا !

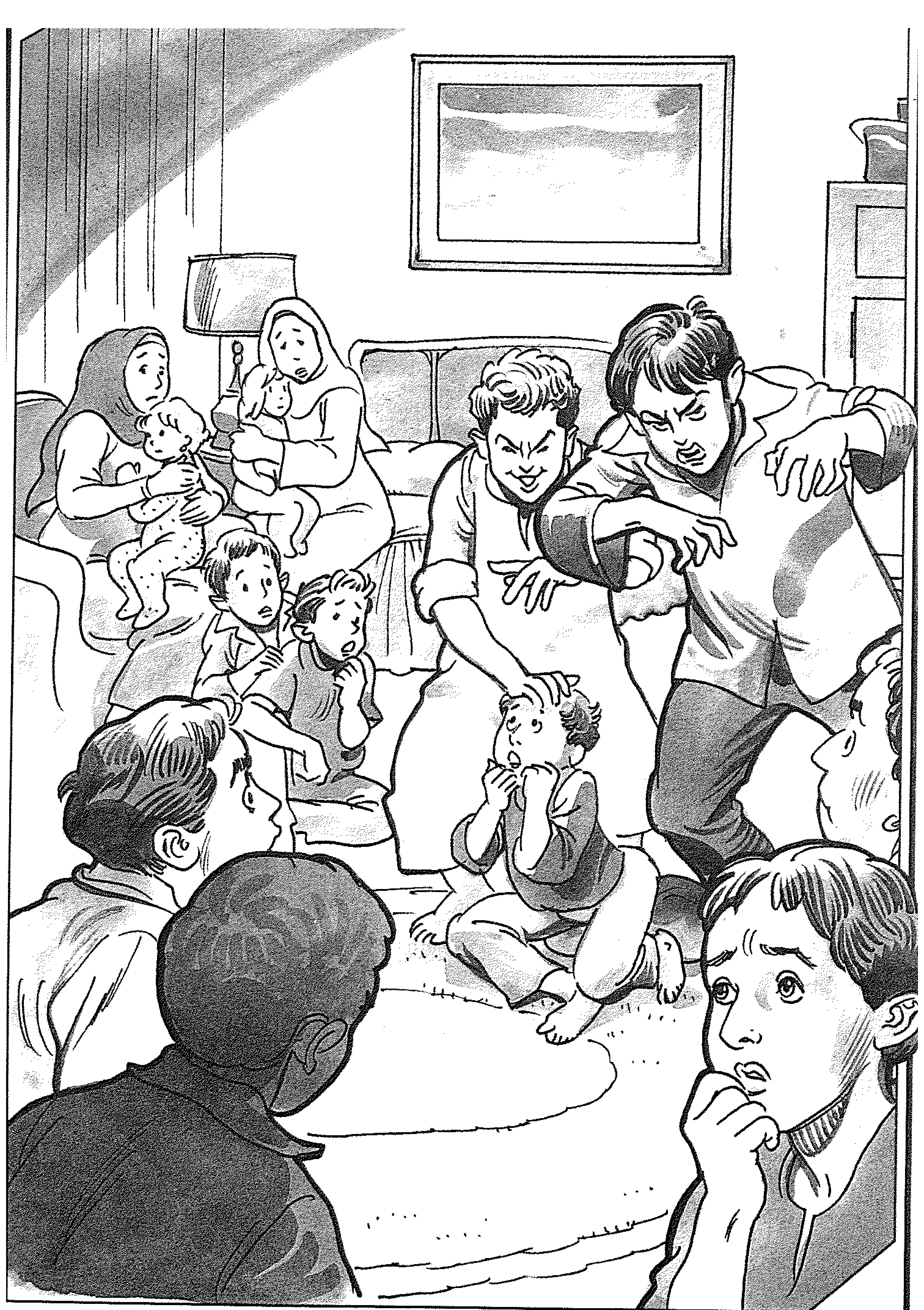
وقالَ المكيّ مهونًا الأمرَ: «ولكنَّ ذلكَ لمْ يحدُثْ منذُ سنتيْنِ. فلا بُدَّ أنَّهُم ماتُوا، واسترِاحتْ أرواحُهُم من عذابِها...».

فعارضَهُ زيَّانُ قائلاً: «كلا ! وأنتَ الصادقُ، أنسيتَ حادثةَ الهاتفِ ؟».

فقال المكيّ: «صدقتَ... غابتْ عنْ بالي تماماً. لا أدري كيفَ نسيتُها، وقدْ حدثَتْ في الشتاءِ الفارطِ فقطْ !».

وانفتحتِ الشهياتُ لحكايةِ الهاتفِ، وصاحَ الأطفالُ: «احكُوا لنَا حكايةَ الهاتفِ... احكُوا لنا !».

فقال المكيّ: «في الشتاءِ الماضِي، جاءتْنَا من مراكشَ ضيفةٌ صديقةٌ لأختِي، واجتمَعَ عليهَا بناتُ الجيرانِ. وبعدَ العشاءِ جلسنَ يتسامرنَ، ويحكينَ النكاتِ ويتضاحكْنَ. وبينمَا هُنَّ كذلكَ، رنَّ جرسُ الهاتفِ، فالتقطَتْهُ أختِي حفصةُ، فإذَا



بصوتِ رجلٍ يطلبُ منهنَّ خفضَ أصواتِهِنَّ ليستطيعَ النومَ. فوعدَتْه حفصةُ بذلكَ وعادتْ إلى الجماعةِ، وأخبرتهُنَّ. فأقفلنَ بابَ الغرفةِ، وأسدَلْنَ الأستارَ الكثيفةَ، وعدْنَ إلى سمرِهِنَّ. وما هيَ إلا لحظةٌ حتى رنَّ الهاتفُ، وإذا الرجلُ نفسُهُ يشتكِي منَ الإزعاجِ. فانحازَتْ البناتُ إلى أحدِ الأركانِ البعيدةِ عن بيوتِ الجيرانِ، وأخذنَ يتحدثْنَ بهمسٍ لا يكادُ يسمعُ! فإذا بالهاتفِ يرنُّ مرةً أخرى، وإذا الرجلُ غاضبٌ هائجٌ يهدِّدُ ويتوعدُ بِأنَّهُ سيأتِي بنفسِهِ لإسكاتِهِنَّ! ولم يَكُنْ في البيتِ رجلٌ؛ فقدْ كانَ الوالدُ مسافرًا، وأنا في السينما.

وحينَ عدتُ إلى البيتِ، وجدتُهُنَّ في حالةِ خوفٍ شديدٍ... وحينَ حكيْنَ لي ما حدَثَ، استغربتُ كثيرًا. فالمنازلُ المحيطةُ بالدارِ كلُّها لناسٍ نعرفُهُم جيدًا، ولنَا بِهِم علاقةٌ طيبةٌ، ويستحيلُ أنْ نزعِجَهُم، لبُعدِ الديارِ بعضِهَا عن بعضٍ، وكبرِ حجمِهَا، وسَمْكِ جُدرانِهَا. وحتى لوْ أزعجناهُم، فإنَّهُم لن يلجأوا إلى التهديدِ بتلكَ الطريقةِ! إلى جانبِ أنَّ الدارَ الوحيدةَ التي كانَ بهَا هاتفٌ في الحيِّ هي دارُنا!

وكانَ الهاتفُ يومَهــا غيرَ آلي، بمعنَى أنَّ المكالماتِ تتمُّ عبرَ موزع بالبريدِ.

فــرفعتُ السماعــةَ، وكلمتُ الموزعَ الليليَّ، فإذا بِــه صــديقٌ، وسَألتُــه عن صــاحبِ المكالمةِ الغـريبـةِ، فقــالَ مندهشًــا: أيـةُ مكــالمةٍ؟ أنَــا هُنَــا منذُ المغـربِ، ولَمْ أوَصِّلْ لــدارِكُمْ أَيَّــةَ مكــالمةٍ بالمرةِ! هذهِ ليلةٌ هادئةٌ جدًّا. . . ».

وكــان المكيّ وزيــانُ يقرآن الــرُّعبَ في عيــونِ القطيعِ البشريِّ الغبيِّ. وكلمَا حكيَــا قصــةً من هذا النــوع، اقتربَ الصغــارُ من الكبارِ، وضاقتِ الحلقةُ حتَّى تكتَّلَ الجميعُ في ركنٍ واحدٍ!

وللقضاءِ على ما تبقَّى من شجاعــةٍ وثباتٍ في نفوسِ الكبارِ، حكى المكيّ عن والِــدِهِ أنه ذاتَ شتــاءٍ استيقظَ لصلاةِ الفجــرِ، وحين دخلَ الحمامَ وجــدَ بِــهِ جديًــا ضخمًا كبيرَ القــرنينِ. فظنَّ الوالــدُ أن أحدًا من شركــائِهِ بالبــاديةِ جاءَ بِــهِ إليهِ، وأن الــوالدةَ وضعتْهُ هنــاكَ، ونسيَتْ أن تخبره. وحاولَ الــوالدُ تجنُّبَ الجدْيِ والمرورِ حولَــه إلَى كرسيٍّ وضــوئِهِ، فاعترضَــهُ الجديُ. . . وتجنَّبَهُ الحاجُّ، وقصَدَ النــاحيةَ الثانيــةَ، فاعترضَهُ، مــرةً أخرَى. . . فما

كانَ مِنْـهُ إلا أنْ أمسكَ بقرنيْهِ، وسحبَهُ، ليخـرِجَهُ منَ الحمامِ إلى وسطِ الـدارِ. ورفضَ الجديُ الخروجَ. وأخــذَ الـوالـدُ يجرُّهُ من قرنيهِ، والآخرُ يقاومُ، وجذَبَه جـذبةً قويَّةً، فانفصلَ الرأسُ عنْ جسدِ الجدي، واختفَى الحيـوانُ تمامــاً، وكأنَّـه تبخـرَ، وبقيَ الرأسُ في يَـدَي الوالـدِ ! بقيَ الرأسُ حيًّا ينظـرُ إلى الوالـدِ بعينيْهِ الكبيرتينِ الجاحظتينِ، ويقولُ بكلامٍ واضحٍ: «هل أعجبكَ مَا فعلتَ ؟! هل أنتَ راضٍ عنْ عَمَلِكَ الآنَ ؟!».

قـال المكيّ متأثراً: «فأصـابَ الوالـدَ رعبٌ شديـدٌ، ورمَى الـرأسَ، وخـرجَ منَ الحمامِ يترنَّحُ، وقد خـارت ركبتـاهُ، فسقطَ بالممرِّ ! وقضَى أياماً في الفـراش، يعانِي الحمَّى والكوابيسَ أثناءَ النومِ واليقظةِ !».

وكانتِ الساعةُ قدْ تجاوزتِ الواحدةَ ليلاً حينَ أوَى الضيوفُ إلى مراقِدِهِم، دونَ أن يغيِّرُوا ملابِسَهُم، أو يحكُّوا أسنانَهُم !

وبمجـرَّدِ مـا انطفأتِ الأضـواءُ قـامَ المكيّ وزيـانُ لإعـدادِ خطتِهما الإرهـابيــةِ. ولمْ ينتهيَـا إلا بعـدَ ســاعتينِ منَ انطفـاءِ الأضواءِ، واستغراقِ الضيوفِ في النومِ.

وفجأةً، وفي هـدأةِ الليـلِ، انطلقتْ صرخـةُ رعبٍ هـائلـةٍ داخلَ غـرفـةِ النـومِ الكبيرةِ، أيقظتْ جميعَ النـائمينَ فيهَـا. وأعقبتْهَـا أصـواتُ عويلٍ وعـواءٌ كعـواءِ الـذئابِ... وجلسَ الضيوفُ يحملقـونَ في الظلامِ الـدامسِ، وأسنانُهم تصطكُّ من الرعبِ، وهم لا يعرفونَ أينَ هُمْ...

وفي هـذهِ اللحظةِ دخلَ الغـرفـةَ هيكلانِ عظميّـانِ، وارتفَعَ حـولَهُما الـزعيقُ والصفيرُ، ودقتِ النـواقيسُ والصنـوجُ، واقتربَ وجهَـا الهيكلينِ مـن وجـوهِ النسـاءِ والأطفـالِ، وطقطقتْ أسنانُهُمْ، وارتمى الأطفـالُ في أحضانِ أمهـاتِهِم، وهنَّ ذاهلاتٌ عنهُنَّ...

وحاولتْ أشْجَعُ النسـاءِ إشعالَ النورِ، فاشتعلَتْ نـارٌ بيضاءُ علَى أرضِ الغـرفةِ كـادَتْ تلمِسُ السقفَ ثم انطفأتْ..! وفي ضوئِهـا ظهرتْ لهمْ رؤوسٌ ووجـوهٌ مدلاَّةٌ من السقفِ تقضقضُ أسنانَها، وتنشدُ بأصواتٍ منشاريَّةٍ:

الـويـلُ الويـلْ فـاض الكيـل!

الـويـلُ الويـلْ فـاض الكيـل!

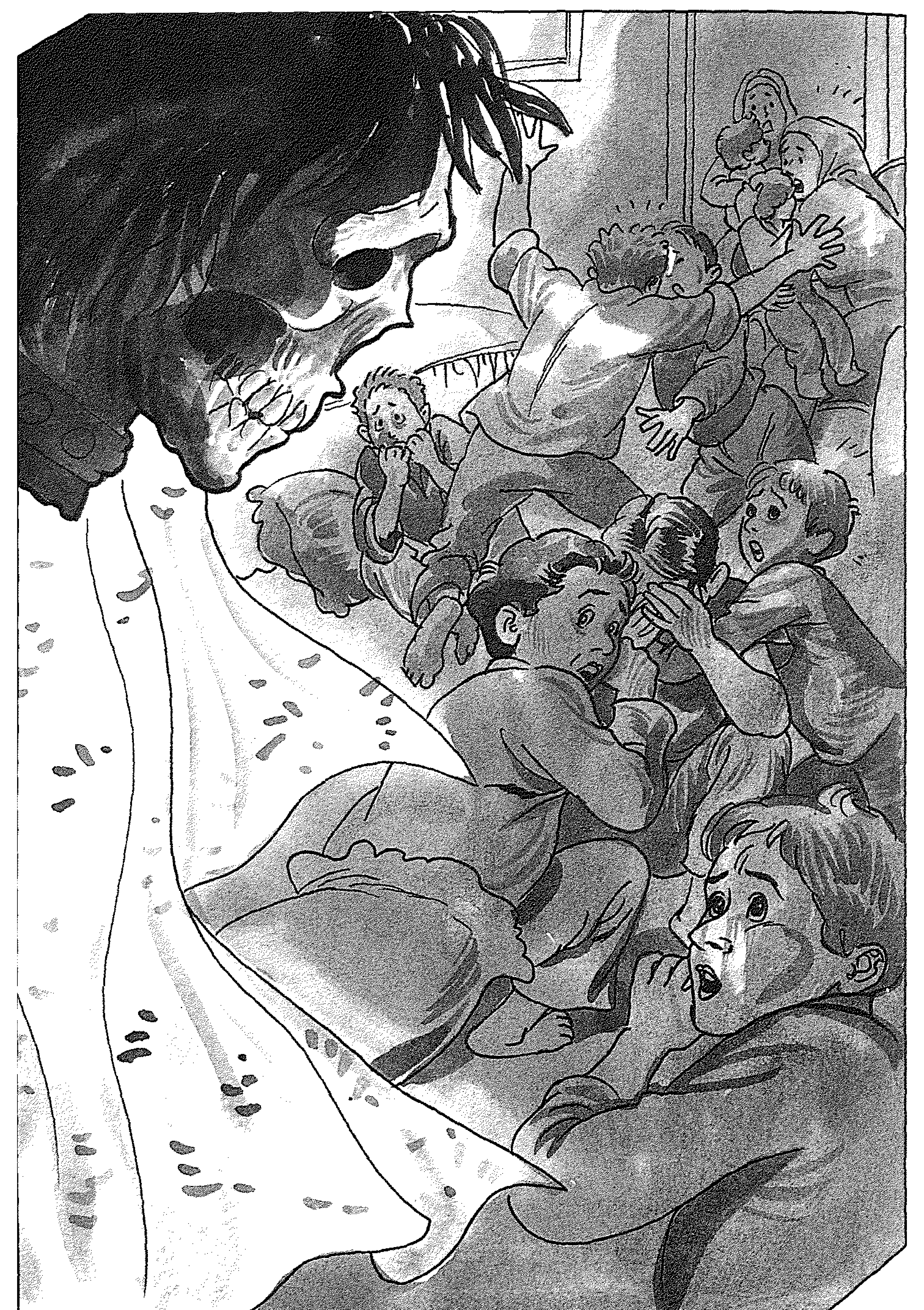
وبدأَ الدمُ يقطرُ من أعناقِهَا المحزوزةِ فوقَ رؤوسِ الضيوفِ ووجوهِهِم، وهمُ يتغطَّون منه بالأزُرِ والبطانياتِ.

وفجأةً هبتْ ريحٌ قويةٌ، وعَلاَ هريرٌ ونباحٌ، وكأنَّ الدارَ امتلأتْ بالكلابِ، وانصفقتْ جميعُ الأبوابِ، وعلاَ صوتُ امرأةٍ تصرخُ: «دمِي... دمِي... دمِي! عينِي... عينِي... عينِي!».

وبدأتِ الكلاَبُ تهرُّ، وكأنها تنهشُ المرأةَ المعذَّبَةَ!

وفي غرفةٍ بالدورِ العلويّ، كان ينامُ عبدُ القادرِ الفرديُّ وصديقُهُ عبدُ العظيمِ المضوبَلُ. فاستيقظَا على صراخ النساءِ والأطفالِ. وحاولاَ النهوضَ، فلمْ يستطيعَا... أحسَّا بثقلٍ هائلٍ فوقَهُما، يمنعُهُما من الحركةِ تماماً! وحاولاَ الصراخَ، فخرجَ من جوفيْهِمَا فحيحٌ صامتٌ كفحيحِ الأفاعِي أخافَهُمَا!

وبعدَ بضعِ دقائقَ منَ الرعبِ الشديدِ وضيقِ التنفسِ، انزاحَ الكابوسُ الثقيلُ عنهُمَا، ورانَ على الدارِ هدوءٌ مريبٌ، وسُمِعَ صوتُ الرجلينِ الحبيسينِ فِي غرفتِهما بالدورِ العلويِّ، وهمَا يحاولانِ فتحَ البابِ المقفلِ مِن الخارجِ، ويسألانِ ماذا يحدثُ؟



وفَتحتْ يدٌ خفيّـة البابَ لهمَا، فخـرجَا، ونـزلا إلى غرفـةِ النساءِ والأطفالِ.

وكَانَ محمدٌ المكيُّ وعبدُ السلامِ زيان يقفانِ خلفَ مِصراعي البابِ، وقـد احمرَّ وجهاهُما من كَبْتِ الضحكِ! كـانَ كلٌّ منهُمَا يـرتـدِي معطفًـا أسـودَ على جسـدِهِ العـارِي وقـدْ رسمَ عليـهِ بالفسفورِ صورةَ هيكلٍ عظمي.

وحينَ توجَّـهَ الرجـلانِ نحوَ السُّلَّـمِ، سمِعَا حـركةً خلْفَهُمَا، والتفَتَا، فكشفَ المكّي، وزيانُ عـن جسَدَيْهِمَا، فلمعَ الهيكلانِ العظميّانِ في الظـلامِ الحالكِ. وصرخَ الرجلان، واندفَعـا لينزلاَ السلمَ، فسقطَـا، وتـدحـرجَـا إلى أسفلِـه مثل كـرتينِ حيتينِ ضخمتينِ، وهما يحدثـانِ هـديـراً شبيهـاً بـ «دْراه ده ده ده ده...».

واشتعل نـورٌ خلفَهُمَا، فوقَفَـا، وقـد أنساهما الـذعرُ أوجـاعَ السقطةِ. وتـوجهَا رأسًا إلى غـرفةِ النساءِ، فـوجدَا الجميعَ تحتَ الأغطيةِ في حالةٍ من الرعبِ المشرفِ على الجنون!



وأخَذَا يطمئنانِهم، ويسألانِهم عمَّا حدثَ. وبَدَلَ أن يجيبُوا، قامُوا جميعاً يجمعُونَ أمتعتَهُم، وقـد اصفرَّتْ وجوهُهُم، وغارتْ عيـونُهُم، وارتعشتْ أطـرافُهُم، وهم يقسِمُـونَ ألا يقضُـوا ليلـةً واحدةً أخرى في هذا البيتِ «المسكونِ» الملعونِ !

وابتعـدتْ أصواتُ النـائحاتِ، وارتفع صـوتا المكيّ وزيـانَ بآيةِ الكرسيِّ، وهمَا نازلانِ في قميصيْ نـومهما من الطبقةِ الثانيةِ. كانـا يحمِلان شمعـدانينِ، في كلِّ منهمَا سبعُ شمعاتٍ. وتـوقَفا بمنتصفِ الـدَرَجِ، وتقـدَّمُ زيـانُ، وقـد انعكستْ أضـواءُ الشموعِ، وتقـاطَعَتْ على وجهِهِ، وجعلتْـهُ، هو الآخـرَ، يبدُو كأحـدِ الأشبـاحِ، ورفع صـوتَـه الجهوريّ صـائحًـا: «يـا أهلَ المكانِ، بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، وبحـقِّ القرآنِ الكريمِ، إلا ما رجعتُم إلى أماكِنِكُمْ آمنينَ، وتركتُمْ ضيوفَنَا مطمئنينَ...».

وقـرآ معـا: «اللهمَّ يـا لطيفُ نسألكَ اللطفَ فيما جَـرَتْ بـهِ المقاديرُ...».

كرّراهَا ثلاثَ مراتٍ، ثـم تليا آيةَ الكرسيِّ بخشوعٍ كبيرٍ. وفي وسطِها تلاشتْ تماماً أصواتُ النائحاتِ...

وفي الغـرفـةِ الكبيرةِ تـوقفَ النسـاءُ والأطفـالُ عن جمعِ أمتعتِهم، واشتعلَ النـورُ أصفـرَ ضعيفـاً في البدايَـةِ، ثُمَّ أخـذَ يقوَى ويتوهَّجُ حتَّى عادَ إلى سطوعِهِ القديمِ.

ودَخلَ المكيُّ وزيانُ خلفَ الـرجلينِ إلى الغرفةِ، وزيـانُ يردِّدُ بصوتِـهِ المسرحيِّ: «كانَ اللهُ معنَـا ومعكُم!» وينظرُ حـواليْهِ إلى آثارِ الـدمِ على الجدرانِ والمطارفِ وقطعِ الأثاثِ القـديمةِ، وإلى الوجـوهِ الصفراءِ، والشفاهِ الـزرقاءِ المرتعشةِ، والعيـونِ الغائرةِ المحاطةِ بالسوادِ...

وقـال المكيُّ ببراءةِ طفلٍ خـائفٍ: «هلْ حدثَ لكـمْ هنَا مـا حدثَ لنَا نحنُ فوقَ؟».

ولم يجبه أحـدٌ. كانُوا جميعًـا منهمكينَ في جمعِ أمتعتِهِمْ، فقالَ زيانُ: «إنَّهُم هزُّوا بنَـا الغرفةَ حتَّى كادُوا يقتلعُـونَهَا من مكانِهَا، ويَطيرونَ بهَا في الهواءِ!».

فأضافَ المكيُّ: «وأردنـا الخروجَ والهروبَ، فلم نستطِعْ... كنَّـا تحتَ ثقلٍ هـائلٍ مثلِ كـابـوسٍ، لا نستطيعُ الحراكَ ولا الصياحَ!».

فقالَ الحاجُّ المضوبلُ : «تماماً كما حدثَ لنا نحنُ !».

وقالَ المكيُّ للنساءِ، وكأنَّهُ لاحظَ في تلكَ اللحظةِ حركتَهُنَّ في جمعِ الأمتعةِ:

«ماذا تفعلْنَ ؟ ألا تنتظِرْنَ حتى تعودَ الوالدةُ ؟! ستتأسَّفُ كثيراً إذا عادتْ ولم تجدْكُنَّ !».

فقالتْ زوجةُ الفرديِّ: «قلْ لَها إذا جاءتْ، إنَّنا اضطررْنَا إلى الذهاب مبكراً لشغلٍ مستعجلٍ عندَ سيدِي عبدِ القادرِ. . .».

وأضافتْ زوجةُ المضوبلِ عاتبةً: «لو باتتْ معَنا الليلةَ، ورأتْ ما رأينَا، لَمَا احتجْنَا إلى تبريرِ ذهابِنَا المفاجئ . .».

وعلى بابِ الدارِ، وقفَ المكيُّ وزيانُ يودعانِ الضيوفَ، ويطلبانِ منهم العودَةَ في الصَّيفِ الموالِي، وهم يحدجونَهُم بنظراتٍ شزراءَ، وكلُّهُم يهمسُ بنفسِ الردِّ تقريباً: «إذا رجعنَا فخذُونَا إلى دارِ المجانِينَ !».

وتحاملَتْ زوجةُ عبدِ القادرِ الفرديِّ على نفسِهَا لتقولَ على وجهِ المجاملةِ: «قولاَ للحاجةِ والحاجِّ إنّنا ننتظرُ زيارتَهُما في



الربيعِ القادمِ . . . الربيعُ عندنَا جميلٌ رائع ! » .

فقالَ المكيُّ : «لا لنْ ننتظرَ حتّى الـربيعِ ! إننَا استأنسْنا بكمْ كثيراً . . . » .

وكانَ المكيُّ وزيانُ يهمسـانِ من وراءِ ابتسامتَيْهِمَا العريضتينِ الصفراوينِ : «ذهابٌ بلاَ رجعةٍ ! » .

«فلاَ رجعت ولا رجعَ الحمارُ ! » .

وحين انطلقتْ السيـارتـانِ ، عَادَا إلى الـدارِ ، وقـد استـولَتْ عليهِمَا نـوبةُ ضحـكٍ عنيفةٌ ، فـاستلقيَـا على ظهـرَيْهما في باحـةِ الدارِ ، وأخـذَا يرفسـانِ الهواءَ ويصرخانَ ! كـان فرحُهُمَا بنجـاحِ خطتهمَا أعمقَ من فـرحهِمَا بفـوزِ فـريقهِمَا الـريـاضيِّ أو بصيـد سمكةٍ ضخمةٍ !

وتـوقَّفَ المكيُّ عن الضحكِ ليقولَ لصـاحبِهِ : «من قـالَ إنَّ المسرحَ ليسَ فنًّا هادفاً ؟ ! » .

وقال زيانُ : «هذهِ سأحكيهَا لحفّارِ قبرِي ! » .

وانخرطَا مـرةً أخرَى في القهقهةِ والزعيـقِ ، ولم يتوقفَا إلا حينَ أحسَّا بوجودِ شخصٍ ثـالثٍ معهُمَا في الدارِ . . . ونظرَا حولَهُمَا ،

فإذَا الحاجُّ الطيبُ واقـفٌ يتفـرَّجُ على مشهـــدِهِمَا المضحكِ، ويُبَسْمِلُ ويُحَوْقِلُ، وقد أخذهُ العجـبُ ممَّا رأى ! ووقفَ الاثنانِ ينفضـانِ قميصَيْهِمَا، وتقدَّمَ المكيُّ من أبيـهِ فقبَّلَ يَدَهُ، كَمَا كَـانَ يفعلُ كلَّ صباحٍ. وتبعـهُ زيـانُ قـائلاً: «صبـاح الخيرِ، بـابَـا الحاجّ...».

فَسَـأَلهُمَا الحاجُّ، وعيناهُ على غُـرفةِ الضُيـوفِ الخاليةِ: «مـاذَا حدثَ؟ أينَ الناسُ؟».

فقالَ المكيُّ: «استيقَظُوا قبلَ الفجـرِ، وذهبُوا. إنهم يسلِّمُونَ عليكُمْ، ويعتذرونَ لكمْ عن اضطرارِهم للسفـرِ مبكراً، ليدركَ السيـدُ عبدُ القـادرِ الفـرديُّ موعـداً مهمَّا كـانَ قـدْ سهَا عنـهُ في الرباطِ».

ونزلَ الخبرُ على الحاجِّ الطيبِ بـرداً وسلاماً، وأخـذ يحمدُ اللهَ في سرِّه، دونَ أن يُظهـرَ فرحـاً أو انشراحاً. وصعِـدَ إلى غرفتِـهِ، وتوجَّـهَ حالاً إلى القبلةِ لصـلاةِ ركعتينِ شكرًا للهِ على خـلاصِهِ ! كان يـؤمنُ بأنَّ اللهَ استجَابَ لدعـاءِ إخوانِهِ الذاكـرينَ في حلقةِ الذكرِ؛ فقدْ كانُوا علَى علمٍ بمحنتِهِ وقُربِ إفلاسِهِ !

* * *

وعادتِ الوالـدةُ والبنتان مع انبلاجِ الصباح ، فـوجدنَ الدارَ خاليـةً منَ الضيوفِ ، فظننَّ أنهُمْ بكـرُوا إلى البحرِ. وأطلَّتِ الأم داخلَ الغـرفـةِ الكبيرَةِ ، فلمْ تجدْ أثـراً لأمتعتهم ، فسألتِ ابنَهَـا المكيَّ عنهُم ، فقالَ : «ذهبُوا إلى الجحيمِ ! » .

وكانَ زيـانُ أقلَّ عنفًـا وألطفَ تعبيـرًا ، فقـالَ : «اطمئنِّي ، يا سيدتي رقيَّةُ ، لنْ تريْهم بعدَ اليومِ ! » .

فسألتِ المرأةُ متظـاهـرةً بـالاستنكـارِ : «لماذَا ؟ مـاذَا فعلتُم بهِم؟» .

فقالَ زيانُ : «مزحْنَا معهُمْ قليلاً . . . » .

فأضافَ المكيُّ : «لسنَا نحنُ الذينَ فعلنَا بهِمْ ، سكانُ المكانِ همُ الـذينَ فعلُوا بِهم ! نحنُ فقطْ حكينَا لهمْ بعـضَ حكايـاتِ الجنِّ والعفـاريتِ قبـلَ النـومِ . . . والبـاقِي فعلتْـهُ الكـوابيسُ والأشبـاحُ والأرواحُ ! وقبلَ أن يطلعَ النهـارُ ، جمعُـوا أشيـاءَهم ورحلُوا ، غير مأسوفٍ عليهِم ! » .

وهمَّتْ صُغرَى البنتينِ بإطلاقِ زغرودةٍ، فحدجتْهَا أمُّهَا بنظرةٍ مانعةٍ، ونظرتْ إلى الشابَّيْنِ، وقالتْ معاتبةً: «آهٍ منكُمَا، أيُّهَا العِفريتانِ! لا بدَّ أنكُمَا فعلتُمَا بهِم ما استدعَى رحيلَهُم بهذِه السرعةِ، حتى دون أن يودِّعُوا!».

فأخذَا يقسمانِ، ويدعوانِ على نفسَيْهمَا بأمراضٍ غريبةٍ، مثلِ (أبو دحاس وأبو تِكَّايْ والحلاقم والحمى الثلثية)، وبأكلِ الخِرَقِ والأحذيةِ الباليةِ والتبنِ والتينِ الشوكِيِّ بقشورِهِ! فتأكدتِ الأم منْ أنَّهُمَا يمزحانِ، وتركتْهُمَا. وتعلَّقَتِ البنتُ الصغرَى بأخيهَا ليَحكيَ لهَا ما جَرى، فجلَسَ يَحكِي بطريقتِهِ الهزليةِ.

وسمِعَ الحاجُّ الطيِّبُ وزوجتُهُ قهقهاتِ الفتاتينِ، ففهمَا أن العِفريتينِ قامَا بعملٍ زهَّدَ الضيوفَ في البقاءِ في الفندقِ المجانيِّ. وأخفَى الزوجانِ الوقُورانِ ارتياحَهُمَا للنتيجةِ السارةِ!

* * *

ومرَّ أسبوعٌ ارتاحَ فيهِ المكيُّ منْ محنةِ الضيوفِ الثقلاءِ، وتنفَّسَ أهلُهُ الصعداءَ.

وفي اليومِ الثامنِ جاءَهُ صديقُهُ زيـانُ برسالةٍ وصلتْهُ مِنْ فريقِ شبابِ الـرباطِ لكـرةِ القدمِ، يطلبُ منهُ فيهَـا القدومَ بفـريقِهِ، شبـابِ طنجـةَ، للعبِ مبـاراةٍ معهُـمْ هنـاكَ. كـانَ المكيُّ منْ عشـاقِ كـرةِ القـدمِ، ومنْ أنصـارِ شبـابِ طنجـةَ، فتحمَّسَ للفكرَةِ، وحثَّ زيانَ على الاستجابَةِ للدعوةِ.

وأثناءَ مناقشةِ مصاريفِ سفرِ الفرقةِ وإقامتِهَا، خَطَرتْ ببالِ المكِّي فكرةٌ اقترَحَهَا على صديقِـهِ زيانَ، فوافقَ عليهَا في الحالِ. وتبسَّمَ ضاحكًا وقالَ:

«سنضرِبُ عُصفورَيْنِ بحجرٍ!»

وكانَ المفـروضُ أنْ يحلَّ الفريقُ المُكَـوَّنُ من خمسـةَ عشَر لاعباً بالرباطِ قبلَ ثلاثـةِ أيامٍ من المباراةِ، لتعرُّفِ الملعبِ والتدرُّبِ. فقامَ الاثنانِ لإعدادِ العُدَّةِ للحَدَثِ الرياضيِّ المهمَّ.

* * *

عـادَ عبـدُ القـادرِ الفرديُّ إلى بيتِـه، بعـد صفقـةٍ خـاسرةٍ، ضيَّعَتْ صباحَهُ وأفسدتْ مـزاجَه. ولم يكدْ يضعُ حقيبتَه ويخلعُ سُتْرَتَـه استعـدادًا للغَـداءِ حتَّى وقعَ طـرقٌ على البـابِ. وذهبَ

أصغرُ الأطفالِ لفتحِـهِ. وحينَ رأى المكيّ صاحَ سعيدًا، وتعلَّقَ بـهِ. ثـم عَـادَ إلى أمِّـهِ يصيحُ: «إنَّـهُ المكيُّ ولـدُ عَمِّي الحاجَّ الطيِّبِ!».

وسمعَ الفرديُّ ذلكَ، فأصـابَهُ الفزعُ، وتشنَّجَتْ عضـلاتُهُ، وأخذتْ عينُـهُ اليُمْنَى تَطْـرِف بِسرعة وهوَ عـاجزٌ عـنِ السيطرةِ عليهَا. وارتبكتْ زوجتُه، وارتعشَتْ شفتـاهَا، وكأنَّها تتكلَّمُ بلا صوتٍ!

وخـرجَ الصغـارُ والغلمانُ لاستقبـالِـهِ، وإدخـالِـهِ إلى البيتِ آملينَ أن يأخـذهُم معـهُ إلى طنجـةَ. وتماثَل الحاجُّ وزوجتُـهُ من الصـدمـةِ، وقـرَّرَا أنْ يستقبـلاَ الفتَى بشيءٍ من الترحيبِ. ومنْ يدرِي؟ لعلَّـهُ جاءَ لـلاعتذارِ عمَّا حـدثَ، ولدعـوتِهِمْ للرجـوعِ لإتمامِ العطلةِ.

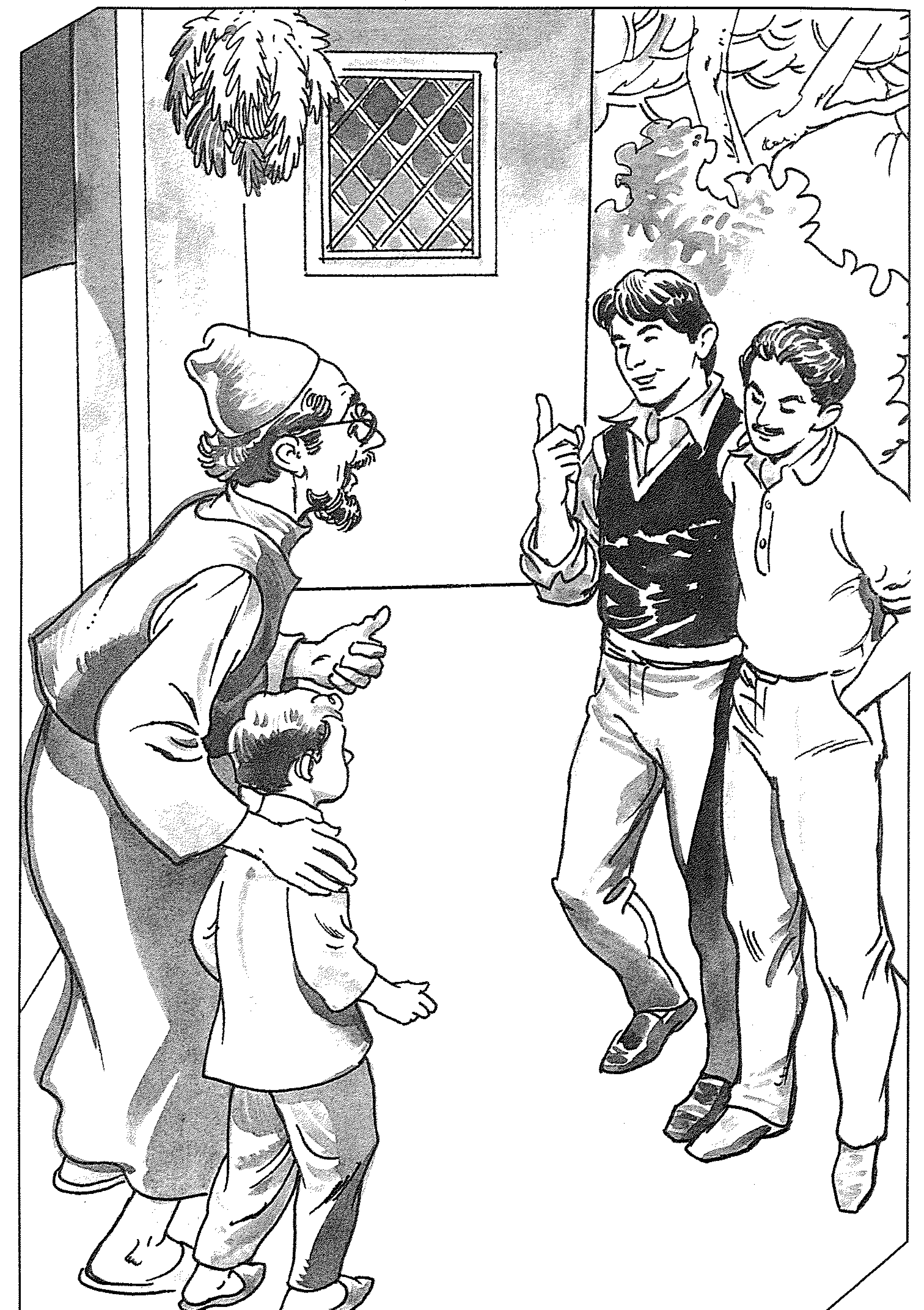
وخـرجَ الحاجُّ لاستقبـالِـهِ بـابتسـامـةٍ مُتَكَلَّفَـةٍ: «أهـلاً أهلاً...».

وعـانقَـهُ، فظهَرَ من خلفِـهِ عبـدُ السـلامِ زيانَ، فمـدَّ إليـهِ الفرديُّ يدَهُ مصـافحًا، وفتَحَ البابَ، ودعاهُمَا للـدخول. وبعدَ

تبـادُلِ التحيَّاتِ معَ سيـدةِ البيتِ، الحاجـةِ مليكـةَ، ومُدَاعَبَـةِ الأولادِ، وقفَ المكيُّ يتلُو عَلَى الجميع خُطبةً تدربَ عليهَا طولَ الطريقِ. فذكَّرَهم بعددِ الأيام التي قضَوْهَا ضيوفًا عليهِم وأنواعِ المأكولاتِ والأطايبِ التِي تمتعُوا بهَا على مـوائِدِهم وبأيامِ البحرِ بالنهارِ والفسحِ في بهجةِ البحرِ الأبيضِ بالليلِ، كلُّ ذلك بلباقةِ مَنْ يَعُدُّ استضـافتَهُم إنعامًا منهُمْ عليهِ. وتمنَّى في ختـامِ الكلمةِ أن يصيرَ مجيئُهم إلى طنجةَ سُنَّةً في كلِّ صيفٍ!

وحينَ انتهَى مدَّ يَـدَهُ لمصافحةِ الفرديِّ وزوجتِـه واستئذانِهما في الانصرافِ. فمدَّ الفرديُّ يدَهُ مغتبطاً، دونَ أن يتحرَّكَ فيهِ عصَبُ أريحيـةٍ أو كرامـةٍ، وكأنـهُ تفادَى مصيبـةً كـادتْ تنزِلُ بـهِ! ولكنَّ زوجتَهُ أمسكتْ بيـدِ المكيّ، وجذَبَتْهُ إلى داخلِ الغـرفةِ الكبرَى، مُقْسِمَةً عليهِ أن يبقَى هوَ وصديقُه للغَداءِ والمبيتِ عندَهُم.

فقـالَ المكيّ: «نحنُ لسنَـا وحدَنـا، معَنَـا بعضُ الأصدقـاءِ الذينَ جـاءوا معَنَا، ولا نستطيعُ التخليَ عنهُم. ومنهُمْ ابنُ والِي المدينةِ وابنُ عميدِ الشرطةِ بها وابنُ وزيـرٍ وعددٌ من أبناءِ الأعيانِ الأثرياءِ بطنجةَ...».



فـانفتَح فمُ الفرديِّ، وتخيَّلَ الفُـرَصَ العظيمةَ التِي سيتيحُهـا لـهُ التعـارُفُ بكلِّ هـؤلاءِ الكبـارِ مـن خـلالِ أبنـائِهِمْ ! فقـالَ للمكيِّ مُلِحًّـا ومُسْتَعْجِـلاً: «مـاذَا تنتظـرُ، يـا ولـدِي ؟ لماذا لمْ تُـدْخِلْهُم في البـدايـةِ ؟ في دارِنَـا متَّسَعٌ لجميعِ الأحبـابِ وأبنـاءِ الأحبابِ. . . ».

فخرجَ المكيُّ، وعـادَ بالفريقِ الـذي ملأ باحةَ الـدارِ ! فكادَ يُغمَى على الحاجَّةِ مليكـةَ، ولكن ابنتَيْهَا أسندتاهَـا، وأدخلتَاهَا المطبخَ، وشمَّـرتَـا لإعـدادِ غَـداءٍ يكفِي لِمَلْءِ خمسـة عشر بطنًـا جائعًا !

وخرَجَ عبـدُ القادرِ الفرديُّ لشراءِ المزيدِ من الموادِّ الغـذائيةِ، وصحَبَ معــهُ أولاَدَهُ الكبــارَ لحملِهَـا، وهــو مُتَـأَرْجِحٌ بينَ الاِمْتِعــاضِ من الإنفـاقِ الإضــافيِّ والطمعِ فِي صفقــاتٍ وتسهيـلاتٍ وتـدخُّلاتٍ وامتيـازاتٍ يحصلُ عليهَـا عن طـريقِ ضيوفِهِ أبناءِ الكبارِ. . .

وعلى المائدةِ قـدَّمَ لـهُ المكيُّ وزيــانُ أعضـاءَ الفـريقِ بأسماء عـائليـةٍ كبيرةٍ معـروفـةٍ. ورغـمَ أنَّ مظهـرَهُم الخَشِنَ ولهجتَهُم



السوقيَّةَ وتصرُّفَهُم غيرَ المهذبِ لمْ يكنْ يوحِي بأنَّهم أبناءُ أعيانٍ، فقدْ فسَّرَ الفـرديُّ شكَّه لصالِحِهم، قائلاً في سرِّه: «لا غـرابةَ في أنْ يكونَ هـؤلاءِ أبناءَ أعيانِ هذَا الـزمانِ، فقد انقلبتِ الـدنيَا، وصارَ أسفلُهَا أعلاَها!».

واستمـرَّتِ الضيـافـةُ الثقيلـةُ البـاهظـةُ الثمنِ ثـلاثـةَ أيـامٍ بلياليِها، وبفطـورهَا وغَدائِها وعَشائِهَا، والمكيُّ يُـذكِّرُ الفرديَّ، أثنـاءَ كلِّ وجبةٍ بـأصنافِ الطعـامِ التِي كـانَتْ تُعِـدُّهَا أمُّـهُ لهُم بأسمائِهـا، ويتفنَّنُ في وصفِهَا، والأولادُ يصـدِّقُـونَ على أقوالِـه ببراءةٍ تثيرُ حفيظةَ الفرديِّ، فيحرِّكُ رأسَهُ هوَ الآخرُ موافقًا...

وحين كـانَ المكيُّ يتعبُ، كـان زيانُ يأخـذُ الكلمـةَ مذكِّـرًا الجميعَ بأيام طنجةَ الجميلةَ، وكيفَ قضَوْها في راحةٍ وهناءٍ بدارِ الحاجِّ الطيبِ، وكيفَ كـانَ يمكنُ أنْ تـزيدَ على الشهـرِ الـذِي قضَوهُ هناكَ، لولاَ ظهورُ سكانِ الدارِ المفزعين!

* * *

وفي اليـومِ الرابع، أحسَّ زيـانُ أنَّ الفـرديَّ يكادُ ينفجـرُ منْ الضَّغْطِ الشديدِ عَلَى ميزانيةِ بيتِهِ. فـاستدرَجَ أحدَ أطفالِهِ ليعرفَ



منهُ ما يروجُ بينَ أَبَوَيْهِ خلفَ بابِ الغرفةِ المُقْفَلِ، فعلمَ أن الفرديَّ يُدَبِّرُ مؤامرة للهروبِ بأُسرتِهِ من الدارِ وتركِهَا لهمْ، أو إخراجِهمْ منهَا، بدعوَى سفرٍ مفاجئٍ لحضورِ جنازةِ أحدِ أفرادِ العائلةِ في مدينةٍ أخرى. . .

وخرجَ الفرديُّ، بعد استراحةِ الغداءِ من غرفتِهِ، عازمًا علَى أنْ يخبرَهُم بأنهُم جميعًا ذاهبونَ لحضورِ جنازةِ عمتهِ بفَاسٍ. وقبلَ أن يفتَحَ فَمَه، بادرَهُ زيانُ بقولِهِ:

- أبشِرْ، يا سيدِي عبدَ القادرِ، أبشِرْ!

وفتَحَ الفرديُّ عينيْهِ خلفَ الزجاجِ السميكِ، وكأنَّهُ يسمعُ بهِمَا، قائلاً:

- بشَّرَكَ اللهُ بالخيرِ.

- معالي وزيرِ الشبيبةِ والرياضة، والدُ عبدِ الحميد، قَلْبِ الدفاعِ، طلبَ أنْ يقابلَكُم غداً بعدَ المباراةِ؛ ليناقشَ معكُم صفقةَ عقاراتٍ كبيرةٍ لوزارتِهِ، فماذَا سنقُولُ لَهُ؟

ودارَ دماغُ الفرديِّ لسماعِ كلمةِ الوزيرِ وصفقةِ العقاراتِ،

وبسرعةِ الحاسوبِ استنتجَ ما ستصبحُ عليهِ حالُهُ، بعدَ فوزِهِ بِصفقةِ الوزارةِ. فقدْ عاشَ حياتَهُ سمسارًا صغيرًا، لا تتعدَّى صفقاتُه بيعَ وكراءَ الغرفِ والشققِ القديمةِ. فقالَ متحمسًا:

- طبعًا! مرحبًا بهِ للعشاءِ معنَا... وقلْ لهُ إنَّ زيارتَه لبيتِنَا المتواضعِ ستكونُ شرفًا عظيمًا لِي ولأسرتِي.

وأسرعَ يخبرُ زوجتَه بالنبإِ السارِّ، ويوصيهَا بإعدادِ عشاءٍ لائقٍ بوزيرٍ.

وهكذَا ضَمِنَ زيانُ لفريقِهِ ضِيافَةَ يومٍ ونصفِ يومٍ آخريْنِ. ولكنَّ المكيّ قلقَ للكذبةِ الكبيرَةِ، فاختلَى بزيانَ، وسألَه:

- ومَاذَا سنفعلُ حينَ يسألُنَا عن الوزيرِ ساعةَ العشاءِ؟ الوزيرُ لا يمكنُ تزويرُهُ كالأشباحِ!

فقال زيانُ مبتسمًا:

- اترُكِ التفكيرَ في ذلكَ لهذَا الرأسِ!

وضربَ على جبينِهِ بكفِّهِ، وأضافَ:

- وما عليكَ أنتَ إلا أنْ تأكلَ جيـدًا، وتستمتعَ بطيبِ المُقامِ وكرمِ الضيافةِ ! فأنتَ لا تأكلُ إلا ما أسْلَفْتَ لهؤلاءِ التَّترِ. . .

* * *

وجاءَ اليومُ الكبيرُ، وانتهتِ المباراةُ بفـوزِ الفريقِ الزائرِ، وعادَ الفريقُ المنتصرُ إلى دارِ مُضيفِهِ سعيداً يحملُ أبطـالَهُ على أكتافِهِ، ويلوحُ بالكأسِ للمارةِ. . .

وحينَ دخلوا سألَ الفرديّ الذي كانَ لابساً بذلةَ العيدِ :

- أينَ معالِي الوزيرِ ؟

فقالَ زيانُ :

- سيتأخرُ قليـلاً. . . جَاءَتْهُ مكالمة هـاتفيةٌ من السيدِ الـوزيرِ الأولِ لحضورِ مجلسٍ حكوميٍّ طارئٍ، ويخشَى أن يطولَ الاجتماعُ ونجوعَ. وقد وعدَ بالإفطارِ معنَا غداً صباحًا، بحولِ اللهِ.

وأُسْقِطَ في يـدِ الفـرديِّ، ففكَّرَ في تغييرِ العَشـاءِ بـآخـرَ أقلَّ تكْلِفةً. ولكـنَّ زوجتَهُ اعترضتْ بدعـوَى أنَّ الوزيـرَ سيعلمُ من ابنِه، ويأخذُ انطباعًا سيئًا عنهُمْ.

واجتمعَ الفـريـقُ على أطبـاقِ المشـويِّ والـدجـاجِ المحمَّـرِ والفواكـهِ والحلوياتِ والمشروباتِ المثلجـةِ التِي لمْ تدخلْ قطُّ إلى بيتِ الفـرديِّ ! وسهـرُوا الليلَ يتحـدثونَ عن المبـاراةِ ولحظـاتِهَا الحاسمةِ. وكانَ الجميعُ يتكلَّمُون ولا ينصِتُون إلا صغارَ الفرديِّ المبهـورين بتجـربـةِ دخـولِ الضيـوفِ إلى بيتِهِم لأولِ مـرةٍ، وبجلوسِهِمْ معَ فريقٍ كاملٍ لكرةِ القدمِ !

* * *

وفي الصبـاحِ، وبعـدَ أنْ جهَزَ الإفطـارُ، جـاءَ صبيُّ البقـالِ ليقولَ للفـرديِّ: «يسلِّمُ عليكُمْ السيـدُ الوزيرُ، ويقـولُ لكمْ لا تنتظـروهُ بـالإفطارِ، وإنَّـه سيأتِي لشُرْبِ القهـوةِ معكُم، حـالَمَا يغادرُ الوزراءُ منزلَهُ».

وغمزَ زيـانُ صديقَه المكيَّ، مـرةً أخرَى. وأقبلَ الجميعُ على أطبـاقِ السفنجِ والبغـريـرِ بالـزبـدةِ والعسلِ وكـؤوسِ الشـايِ والقهوةِ بالحليبِ وعصيرِ الفواكهِ بشهيةِ الذِّئابِ الجائعةِ. . .

* * *

وبعدَ الإفطــارِ جمعَ أعضاءُ الفـريقِ حقــائبَهم، وأخــذُوا يسلِّمُونَ على الحاجِّ، ويخرجُونَ، وهــو يُـحَمْلِقُ فيهم من خلفِ نظارتِهِ غيرَ فاهمٍ ! وأخيراً أمسَكَ زيانَ من ذراعِهِ وسألَهُ :

- ألا تنتظرُونَ حتى يأتيَ السيدُ الوزيرُ ؟

ولمْ يُجِبْ زيـانُ حتى اقتربَ من بـابِ الخروجِ، والـرجلُ يُلِحُّ في السؤالِ. فالتفتَ إليهِ بوجهٍ جامدٍ، وقالَ :

- أيّ وزيرٍ ؟ !

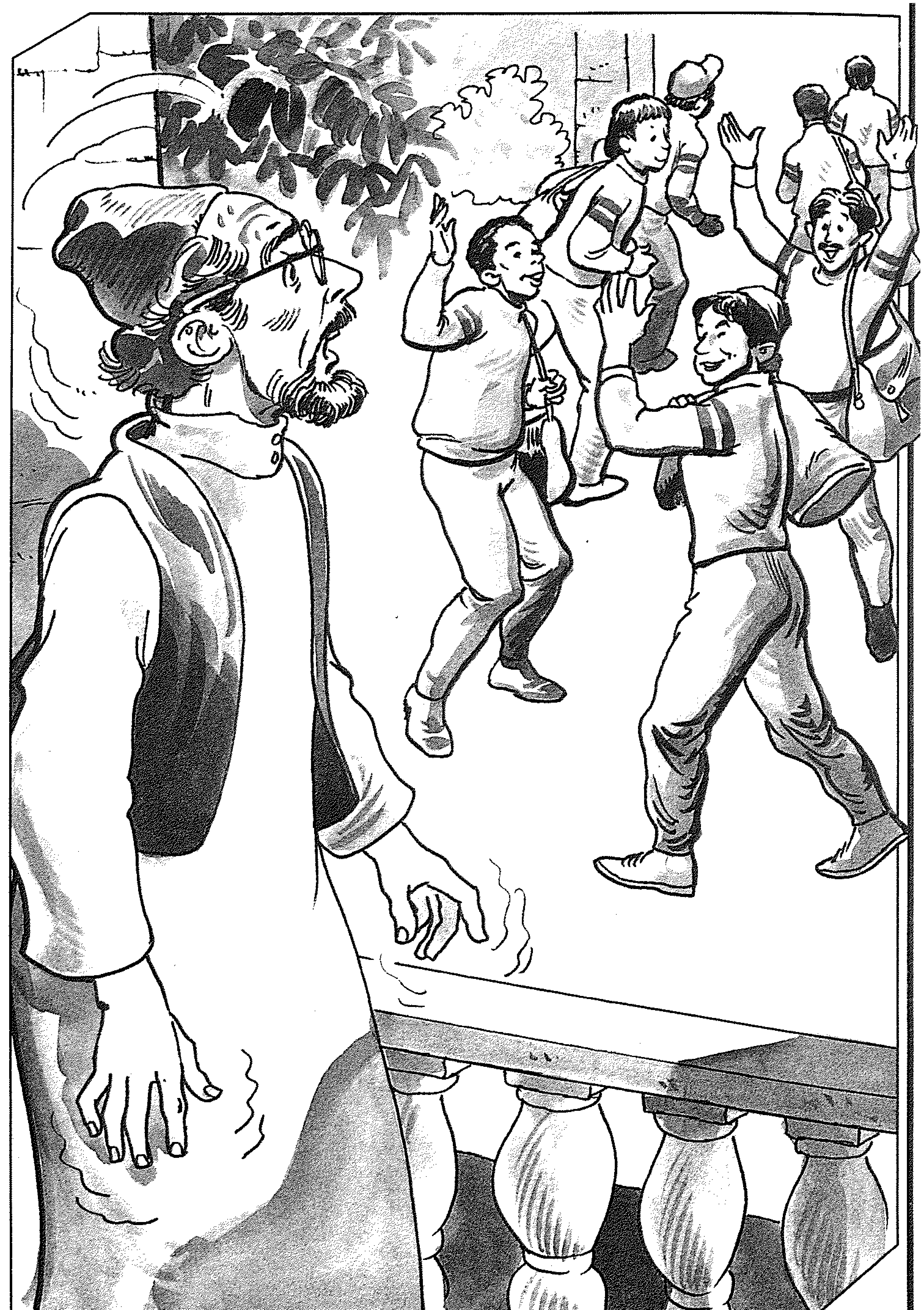
فصاحَ الفرديُّ مستنكراً تَـجَاهُلَهُ :

- ويلي ! وزيــرُ الشبيبـــةِ والــريـــاضـــةِ... وصفقــــةُ العقاراتِ... والوزارةُ... ومجلسُ الحكومةِ !

واختلطَ عليهِ الكـلامُ وتلعثَمَ. ونظَرَ زيـانُ إلى يدِهِ القـابضةِ على ذراعِهِ، ثمَّ إلى وجهِهِ، وقالَ آمراً :

- اتْرُكْ ذِرَاعي !

فولولَ الفرديُّ :



- ويلي وحدي، أستغفرُ اللهَ !

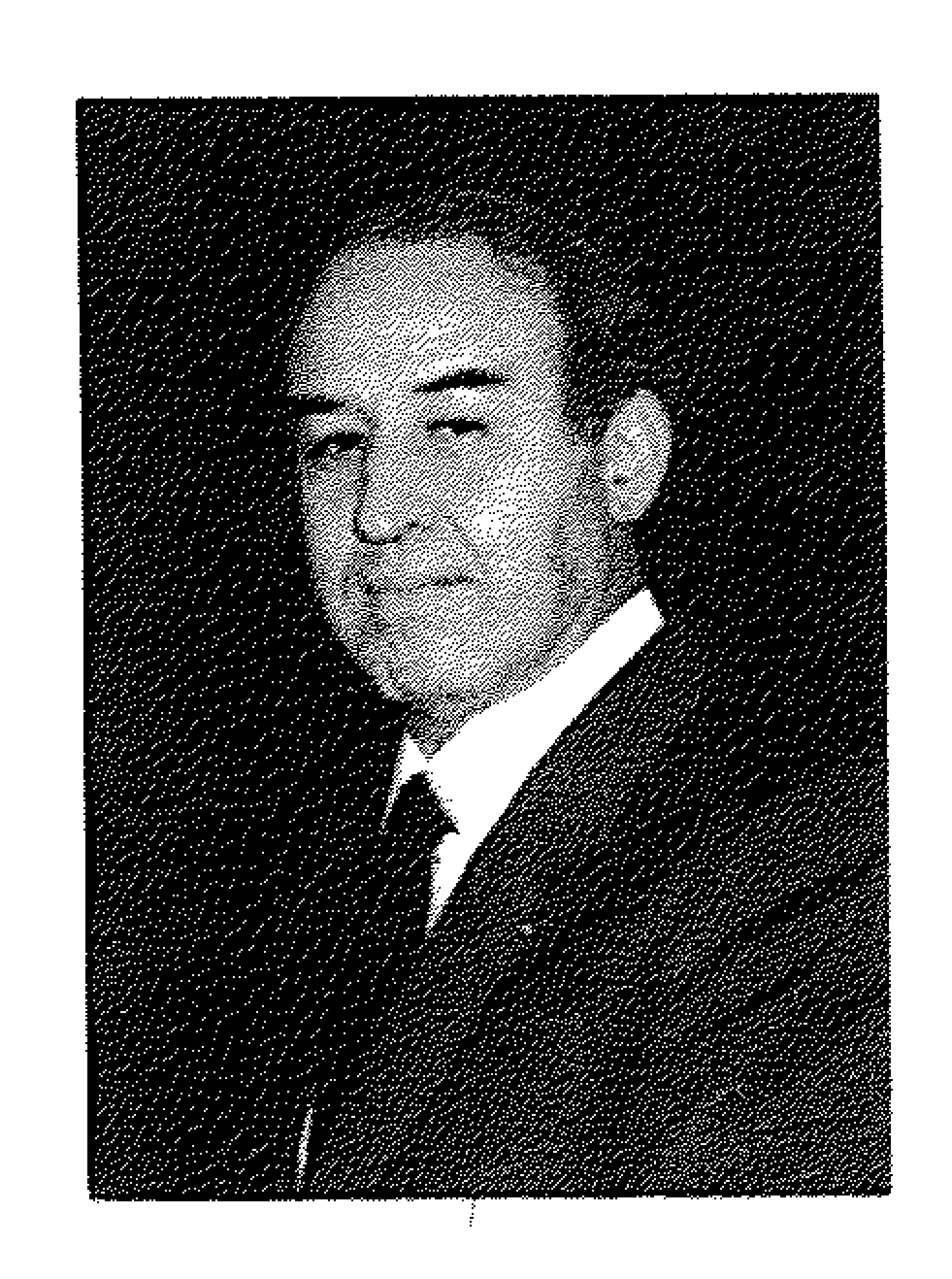
وأشارَ زيانُ إلى أعضاءِ الفريقِ سائلاً الفرديُّ :

- هل صدَّقْتَ أنَّ هؤلاءِ أبناءُ وزراءَ وأعيانٍ؟! آباءُ هؤلاءِ أعلاهُم رُتْبةً في الحكومةِ عسكريٌّ متقاعدٌ ! أما الباقون فإما بائعُ نعناع أو إسكافيٌّ أو حمالٌ أو عاطلٌ ! وأغلبُ الأولادِ لمْ يدخلُوا المدرسةَ . . . فاحمدُوا اللهَ على أنَّهُم لمْ يذبحُوكُم، ويسرقُوا أثاثَ الدارِ ! فتلكَ هوايَتُهم المفضلةُ . . . وتحسَّسَ الفرديُّ حنجرَتَه بيدِهِ عندَ سماعِ كلمةِ الذبحِ . وسحَبَ زيانُ ذراعَهُ بعنفٍ مِن قبضتِهِ المعروقةِ المرتجفةِ، وقالَ :

- إذَا لمْ تكونُوا مستعدينَ لاستضافةِ الناسِ إلا بالطمع والابتزازِ وبالمُقَابلِ، فلا تنزلُوا ضيوفًا علَى من لا يعرفونكُم ولا تعرفونَهُم، وتأتُوا على الأخضرِ واليابسِ كالجرادِ، وتتركُوهُم غارقينَ في الديونِ .

وصفَّقَ أعضاءُ الفريقِ، وعلاَ هتافُهُم باسمِ زيانَ، وحملُوه علَى أكتافِهِم، وذهبُوا يُنشدونَ نشيدَ الفريقِ طولَ الطريقِ إلى محطةِ القطار.

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبدالسلام البقالي، الحاصل علي جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء ... ال
المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض
فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ا
الحديثة للشباب في العالم العربي.

مكتـ